Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

البنية و النظم عند الجرجاني
تأصيل جذور الدرس اللساني العربي

د.شتوح خضرة
جامعة محمد بوضياف – المسيلة

ملخص:

إن دراسة التراث العربي واستنطاق ما فيه من الكوامن اللغوية النفيسة التي لها صلة بالدرس اللساني الحديث، هي بحث في الجذور اللسانية العربية على أساس أن اللغويين الغربيين، قد اطلعوا على الجهود العربية القديمة وتأثروا بها واستفادوا منها في تأسيسهم لنظرياتهم اللسانية الحديثة. وبنية النظم عند "الجرجاني" من خلال كتابه " دلائل الإعجاز" هي تأكيد لتأصيل جذور الدرس اللساني العربي.

الكلمات المفتاحية:البنية– النظم– و اللسانيات العربية

Abstract

The study of the Arab heritage and the interrogation of the language of the mother, which is relevant to the modern tongue lesson, is a search of the Arabic tongue roots on the fact that the Arabic language has seen and influenced the old Arab efforts and benefited from it in their founding of their modern tongue theories The structure of the systems at the "Jurgani" through the writing of the Miracle Guides is a confirmation of the roots of the Arabic tongue lesson.

Key words : Structure – Systems - Arabic linguistics

1- مفهوم البنية :

1) البنية لغة:

إن لفظة البنية شائعة الاستعمال في اللغة العربية منذ القديم، و قد وردت في مصادر اللغة و الأدب بدلالات عديدة، غير أن المعنى الشائع هو البناء و المعمار، و قد وردت في "لسان العرب" بهذا المعنى حيث جاء في مادة "بنى" :

" و البنية ما بنيته و هو البِنى و البُنى...، يقول الجوهري: و البُنى بالضم مقصور مثل البِنى : بُنية و بِنًى بكسر الباء مقصور... سمي بناء من حيث كان البناء لازما موضعا لا يزول من مكان إلى غيره " [1].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

و قال ابن منظور (ت 711هـ) : " و البنيُ : نقيض الهدم، بنى البناء البناء بنياً وبناء وبنى مقصور، و بنياناً و بنية و بناية، وابتناه و بناه " [2].

إن لفظة بنية ثلاثية الأصل، و هي من "بنى" أو "بنا"، غير أن الأصل الأول هو الأكثر استعمالا و شيوعا من الأصل الثاني الذي قل في كلام العرب، كما ذكر صاحب "لسان العرب"[3]. ولفظة بنية تعني "الهيئة التي يبنى عليها"[4]. أما لفظة "مبنى" فهي مرادفة للفظة "بنية" عند أهل اللسان العربي، على أساس تفريقهم بين المعنى و المبنى"[5].

مما تقدّم فإن البنية لغة تحمل دلالة : "البناء" و "المعمار" و "التشييد ".

2) البنية إصطلاحا:

لقد انتقلت لفظة "بنية" في الفكر المعاصر من دلالتها اللغوية إلى دلالة، إن لم نقل دلالات اصطلاحية، للتعبير عن هيكل الشيء ، أي للحديث عن الأجزاء التي تشكل هذا الهيكل بوصفه بناء يمكن أن يحلل إلى أجزائه الأولية، وبنية هذا الشيء ونظامه هما اللذان يؤكدان وجوده ما دام جوهر الشيء هو وجوده، كما يقول عبد السلام المسدي[6] .

البنية تعني، إذن ، تركيب الشيء من أجزاء على شكل معين يحدده الشخص حسب تصوره لهذا الشيء بالذات، بناء على رؤية محددة. غير أن نظرة كل واحد إلى ذات الشيء تختلف من شخص إلى آخر، حسب رواية كل واحد، لأن هذه البنية، أو هذا التركيب يخضع إلى نظام أو قانون يتجلى دوره في تنظيم وتفسير تكوين الأشياء وإدراكها [7].

ولفظة بنية لها قرائن عديدة، فقديماً نجد "الجاحظ" و "ابن رشيق" قد وظفاها بمعنى النسج : " و أهل صناعة الشعر، أبصر به من العلماء بآلته من نحو غريب و مثل و خبر وما أشبه ذلك... و قد يميز الشعر من لا يقوله، كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه... "[8].

وعموما لم يذكر علماء اللغة مصطلح البنية، و إنما ربطوه بالكلام، و بنظمه، حيث يقول "أبو هلال العسكري[9] (ت 400هـ) :

تأخير الألفاظ و إبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، و هو أحسن نعوته و أزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج، كان أحسن له و أدعى للقلوب إليه، و إن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب و الإيجاز أليق بموقعه و أحق بالمقام و الحال، كان جامعاً للحسن بارعا في الفضل، و إن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره و أوله يكشف عن آخره، كان قد جمع نهاية .

مما سبق، نخلص إلى أن النحاة القدامى – و على رأسهم "« الجرجاني» – قد عرفوا مفهوم البنية، و لكنهم وظفوا مصطلحات للدلالة على بنية الكلام و هي : النظم، التركيب، التأليف، الترتيب، التعليق و البناء.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

3) بين البنية و البنيوية :

أما الاستعمال الحديث لمصطلح البنية، فهي تعني طريقة فنية يقام بها مبنى ما أو طريقة تتكيف بها الأجزاء، فينتج عنها ذلك الشكل المادي أو اللغوي أو الكلامي. و إنها ما يكشف عنه التحليل الداخلي لتركيب ما عندما يحلل إلى أجزائه الأولية الجوهرية و الثانوية".

أما البنية (Structure) بوصفها منهجاً – البنيوية Structuralisme– طريقة و افتراضاً و وسيلة هادفة يستعملها الباحث [10] " قصد معرفة القوانين التي تحدد بنية نسق اللغة، وتتبع حركة تطور تلك القوانين، بوصف اللغة تمثل نسقا عضويا منظما من العلامات (Signes) على حد قول "زكريا إبراهيم" : " لا يمكن أن تكون ثمة بنية إلاّ حيث تكون ثمة"[11] وعليه فالمنهج البنيوي يحدد اتجاه البناء المتمثل في العلاقات التي تعطي بدورها دلالة للعناصر المترابطة، وتُحدّد هذه الدلالة بإدراك قيمة العناصر اللغوية، و بالنظر إلى موضعها داخل مجموع العلاقات المنتظمة.

وتتجلى أهمية البنيوية، في كونها تمكن المفكر وفق منهجية علمية واسعة من التوصل إلى الإجابة عن كل تساؤلاته، فيحدد بالتالي عمق المعرفة، وفي هذا يقول "زكريا إبراهيم" : " البنية كلمة واسعة، فضفاضة، لا تكاد تعني شيئا لأنها تعني كل شيء [12] وهذا ما أدى إلى سعة توظيفها علميا.

و لقد استعملت البنيوية بوصفها منهجا للدراسة و التحليل في معظم حقول المعرفة؛ الدراسات الأنثروبولوجية، و الإبستمولوجيا (مبحث العلوم)، و تاريخ الثقافات، و في التحليل النفسي، و في علم اللغة. و غدت البنيوية، إذن، مفهوما فلسفيا، يتداول في شتى مجالات المعرفة و العلوم، أصبحت مفتاح العلوم جميعها، بما في ذلك علم اللغة و النقد الأدبي"[13].

إن الغرض البنيوي ثبتت خصوبته في مجال فهم و إدراك معظم الظواهر اللغوية والأنثربولوجية[14] وما يهمنا من هذه الاستعمالات المذكورة، خدمتها للجانب اللغوي بوصف اللغة نظاما تركيبيا بنائيا، فاللغة ليست عبارة عن مجموعة أو قضية من العناصر، بل هي نظام مهيكل، و كل متماسك و متضامن، فالموقع البنيوي يحدد لكل عنصر قيمته و وظيفته[15].

و لم يوظف " فرديناند دي سوسير" (F. de SauSSure)[16] " مصطلح "البنية"، بل عبر عنها بالنظام و النسق [17] ، حين تعرض لمفهوم اللغة، قال : " إنها نظام أدلة متميزة، تقابل أفكاراً متمايزة[18]. بمعنى أن اللغة نظام بنائي خاص لعلامات أو دلائل لغوية. و بهذا تكون البنيوية قد تعدّت الأبحاث التطورية التي ركزت على رصد الظواهر منعزلة، و أخذت بطريقة

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

المجموعات للنظام اللغوي المتزامن على حد قول "جان بياجيه" (Jean Piaget) : " اللغة مصدر لبنيات مهمة من ناحية عمرها بشكل خاص (إنها تفوق العلوم بكثير) ومن ناحية شموليتها وقدرتها"[19].

مما سبق يمكن أن نلخص إلى:

- عبر اللغويون عن مفهومهم للبنية بمصطلحات مختلفة : النظام، النسق، الترتيب، العلاقات[20]، القانون، التحويل.
- إن هذا الاختلاف في مفهوم البنية لدليل على ديناميكية الفكر، التي جعلت من البنية اللغوية يستبعد أن تمثل مذهبا موحداً متجانسا أو حركة فكرة جامدة [21].
- لكن الرؤية البنيوية لم تكن فريدة التنوع، فهي تعكس المخاض الذي كان يمر به الفكر المنهجي في تمزقه بين الزمانية و الآنية [22].
- إن البنية في الدراسات اللغوية ترتبط ارتباطا وثيقا بدراسة التراكيب اللغوية، أي تراكيب الجمل، بوصف الجملة أصغر وحدة في الكلام و في التعبير[23] . وانطلاقا من هذه العلاقة بين البنية و الجملة و الكلام، نحاول أن نبين مفهوم بنية ونظم الجملة عند اللغويين العرب القدامى.

1- مفهوم النظم و تطوره في الدرس اللغوي العربي القديم :

1) **النظم لغة** : يدور المعنى اللغوي للفظة "النظم " حول التأليف و التنظيم و الترتيب، و ذلك في مختلف المعاجم العربية [24].

جاء في لسان العرب" : نظم : النظم = التأليف، نظمهُ بينظمهُ نظماً، و نظاماً، و نظمه فانتظم و تنظم. و نظمت اللؤلؤ أي : جمعته في السلك، و التنظيم مثله، و منه نظمت الشعر ونظمته، و نظم الأمر على المثل.

وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته. و النظم : المنظوم، وصف بالمصدر. و النظم : ما نظمته من لؤلؤ و خرز و غيرهما، واحدته نظمة. ونظم الحنظل : حبّه في صيصانه". [25].

2) **النظم اصطلاحاً** :

إن المعنى المعجمي لمصطلح النظم هو التأليف و التنظيم و الترتيب، وانتقل هذا المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي: فارتبطت لفظة "النظم" –من حيث الدلالة الاصطلاحية– بالبحث في الهيئات النحوية للكلمات[26]، في كل من النقد والأدب و علم الجمال، حيث يعكس النظم

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

الكلامي مزايا و دلالات شعورية و جمالية وفلسفية تنتج عن تلك المعاني القائمة في نفس المبدع، فيعبر عن المعاني ببناء الألفاظ و ترتيب الكلمات، فيتآلف الكلام و يركب داخل نظام قواعدي لغوي[27] وفق سياق خاص.

و قد استعملت لفظة "النظم" في النقد بمعنى التأليف، الذي يخضع للفكر، هذا الفكر الذي لا يضع لفظة إزاء أخرى لأن كل لفظة تتميز عن لفظة أخرى[28]. و بالتالي يتحدد هذا الاختلاف بحسب السياق الكلامي.

3) منطلق النظم عند « الجرجاني» / مسألة اللفظ و المعنى :

نظرية النظم عند "الإمام « الجرجاني»" [29] تعد مرحلة متطورة جداً من مراحل الفكر النقدي العربي، الذي بدأ يتأسس منذ القرن الثاني الهجري بفضل جهود "الجاحظ"، "الآمدي" و "ابن قتيبة" و غيرهم، و يعد "« الجرجاني»" آخر من طور هذا النقد الذي يعتمد أساساً على علم اللغة. و قد كان الصراع قائما حول قضيتين أساسيتين هما : اللفظ والمعنى، فانقسم علماء اللغة إلى فريقين؛ فريق اهتم باللفظ، و فريق آخر اهتم بالمعنى .

ورأى "الجاحظ" أن المعنى لا قيمة له بالنظر إلى اللفظ، قال : " المعاني مطروحة في الطريق " [30]. و أكد على أن القضية تتعلق أساساً بالتأليف بين الألفاظ لخلق المعاني، و ليس العكس، فقال في شأن إعجاز القرآن : " ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم و بلغائهم سورة قصيرة أو طويلة، لتبين له في نظامها و مخرجها من لفظها و طابعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تُحدّي بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها " [31]. بمعنى أن السر في إعجاز القرآن (النص) يكمن في ألفاظه من حيث نظمها و مخرجها و طابعها.

وقد فهم "« الجرجاني»" ما أشار إليه : "الجاحظ" بأن اللفظ الذي يعنيه يمثل الأداة الأولية والصورة التي تحدث في المعنى [32] : " و أعلم أن الداء الدوي، و الذي أعيى أمره في هذا الباب، غلط من قدم الشعر بمعناه، و أقل الاحتفال باللفظ، و جعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى يقول : "ما في اللفظ لولا المعنى ؟ و هل الكلام إلا معناه ؟". فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة و أدبا، واشتمل على تشبيه غريب و معنى نادر، فإن مال إلى اللفظ شيئا، و رأى أن ينحله بعض الفضيلة، لم يعرف غير الاستعارة ... و قد قنع بظواهر الأمور، و بالجمل، و بأن يكون كمن يجلب المتاع للبيع، إنما همة أن يروج عنه... فقد استكمل الفضل، و بلغ أقصى ما يراد [33]. و إلى جانب اهتمامه بالمعنى، فقد ركز "« الجرجاني»" على اللفظ، و رأى أن جمال اللغة يمكن في التركيب، و من هذا المنطلق حاول أن يبين أسباب الإعجاز في القرآن – بوصفه قضية جدلية طرحت قبله– من خلال كتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز "، فقال : "

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنهم حين سمعوا القرآن، و حين تحدوا إلى معارضته، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله، و أنهم رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه : لكان محالاً أن يدعوا معارضته و قد تُحدّوا إليه، و قرعوا فيه، و طولبوا به، و أن يتعرضوا لشبا الأسنة، و يقتحموا موارد الموت [34]. هذا القول مصداقا لقوله تعالى : ﴿ل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ *

ويذكر في "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز" : " وهذا جُمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدّوا إلى معارضة القرآن، و إذعانهم و علمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذراع المخلوقين " [35]، فالقضية الأساسية في كتابيه تبنى على التفريق بين مستويات الكلام، ابتداء من الكلام العادي، إلى غاية الكلام المعجز الذي يفوق طاقة البشر[36]، فالقرآن معجز في النص ذاته، و هذا ما ذهب إليه " « الجرجاني»" : " فأما الذي عليه العلماء من أنه معجز فى نفسه، و أنه في نظمه و تأليفه على وصف لا يهتدي الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك الوصف، فلا يصح البتة ذاك : لا فرق بين أن يكون الفعل معجزاً في جنسه كإحياء الموتى، و بين أن يكون معجزاً لوقوعه على وصفي. وإذا كان كذلك، فكما أنه محال أن يكون ههُنا إحياء ميت لا من فعل اللّه، كذلك محال أن يكون ههنا مثل نظم القرآن لا من فعله تعالى. فهذا هو"[37].

ف "« الجرجاني»" ينفي أن يكمن الإعجاز في خارج النص، بل هو كامن في كل آية من آياته طالت أو قصرت و الإعجاز مستمر الزمكان[38] : " فقيل لنا : قد سمعنا ما قلتم، فأخبرونا عنهم، عماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه و حسنها و صحتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟ فإن قلتم : "عن الألفاظ"، فماذا أعجزهم من الألفاظ، أم ما بهرهم منه؟ فقلنا: لأعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه و مقاطعها، و مجاري ألفاظها و مواقعها، و في مضارب كل مثل، و مساق كل خبر، و صورة كل عظمة و تنبيه... و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، و عشرا عشرا، و آية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها... وأعجز الجمهور و نظاما و التئاما، و إتقانا و إحكاما [39]. فمنطلق النظم بهذا المفهوم يرتبط بالجانب العقائدي للجرجاني.

إن « الجرجاني» قصد بالكلام في إعجاز القرآن، معنى استحسان الكلام كيف يكون فقال : "وجملة ما أردت أن أبينه لك : أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، و لفظ تستجديه، من أن يكون

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، و أن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل... "[40] أي يتحقق حسن الكلام بالمعاني لا بالألفاظ[41]"، قال: " وأعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ، هو به أخص و أولى، و ضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم"[42].

نخلص مما سبق إلى أن منطلق النظم عند "« الجرجاني»" هو قضية الإعجاز القرآني، فما مفهوم النظم عنده ؟.

2- مفهوم النظم و دلالاته عند الإمام "« الجرجاني»" :

اهتم النحاة واللغويون والنقاد والبلاغيون العرب بمسألة النظم، منذ عصر تأسيس الدرس اللغوي، غير أن معالجتهم لهذا الموضوع كانت ضيقة، حيث لم يتعمقوا في دراسته، و لم يحددوا أبعاده ، وشروطه، حتى جاء "عبد القاهر « الجرجاني»" : في القرن الخامس الهجري، فتناول موضع النظم بالدراسة، و بين وظيفته في المجال اللغوي تنظيراً و تطبيقا في مؤلفين هما : "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

إن هذين الكتابين يعدان المصدرين الأساسيين في بيان بلاغة اللغة العربية وأسرارها الجمالية، كما علّل فيهما بلاغة الكلام ومدى تأثيرها في النفس البشرية"[43]، و بين كذلك علاقتها بدقة التفكير فقال : " إن المعاني الشريفة اللطيفة تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله : 'كالبدر أفرط في العلو" إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ودمجه المجاز في كونه دانيا شاسعا و ترقم ذلك في قلبك، ثم تعود إلى ما يعرض في البيت الثاني يملك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى و ترد البصر من هذه إلى تلك و تنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله " شاسع " لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهي في القرب فقال "جد قريب". فهذا هو الذي أردت بالحاجة إلى الفكر "[44]. وبعبارة أخرى، تتمثل دقة التفكير في محاولة السامع إدراك الصور السمعية و إحالتها على الجانب الذهني مع ضرورة ربطها مع الصور الأخرى ليتحدد المعنى. و بهذا يؤكد "« الجرجاني»" على أن الفكر يتعلق بمعاني الكلام غير المجردة من معاني النحو.

لقد تجاوز "« الجرجاني»" كلا من مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة، ومرحلة الدراسة النحوية المتخصصة [45]. على الرغم من أنه قد استفاد كثيرا من الذين سبقوه، حتى بلغ مرحلة الدراسة الوظيفية، التي تعد اتجاها تجديديا في مجال الدراسات اللغوية، وقد طبع بها الدراسة النحوية حينما ربط النحو بالنظم، وحين استدل على إعجاز القرآن وأشاد بمزية النظم عن اللفظ :

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

"واعلم أن هذا –أعني الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وبين أن تكون في النظم – باب يكثر فيه الغلط فلا تزال ترى مستحسنا قد أخطأ بالإستحسان موضعه، فينحل اللفظ ما ليس له، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه فظننت أن حسنه ذلك كله للفظ منه دون النظام "[46].

إن "« الجرجاني»" قد تمكن من وضع أسس لنظرية لغوية تعتمد أساسا على النظم، وفق منهج وظيفي يبرز في مباحث كتابه "دلائل الإعجاز" . وهذا لا يعني أن "« الجرجاني»" قد أقام هذه النظرية من العدم، ولكنه أدرك أفكار القدامى وأعاد صقلها واعتمدها أرضية لدراسة اللغة وفق منهجه الجديد؛ وقد أقر بفضل العلماء في ذلك حينما قال : " وقد علمت أطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره، والتنويه بذكره و إجماعهم أن لا فضل مع عدمه "[47]. وهناك من يذهب إلى أن "عبد القاهر « الجرجاني»" قد استمد نظرية النظم من "الجاحظ" في خطوطها العريضة"[48]. غير أن جهوده كانت واسعة وشاملة في الدراسات اللغوية والنقدية؛ وبخاصة في النحو والبلاغة.

إن مفهوم النظم ودلالاته عند "« الجرجاني»"، تختلف عن المفهوم الذي ذهب إليه العلماء من قبله، الذين رأوا أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه. أهم سمة تميز مفهوم "« الجرجاني»" للنظم أنه ربطه بالنحو، وجعلهما متلازمين قال : " النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلام "[49].

ويقول في موضع آخر " وإنك و إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا" [50]. يذكر أيضاً : " مما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراد و مجردة من معاني النحو" [51]. وبهذه النصوص يؤكد "« الجرجاني»" على ضرورة توخي معاني النحو و مراعاتها : "أعلم أن ليس "النظام " إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها...، و ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها : في قولك : « زيد منطلق » و « زيد ينطلق » و « ينطلق زيد» و « منطلق زيد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زيداً» و لا زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق»[52] ، نفهم من خلال النصوص السابقة أن النظم يرتبط أساساً بالنحو ارتباطا وثيقا، و يوضح "« الجرجاني» هذا الارتباط نظاما – شعراً– فيقول :

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

فما لنظم كلام أنت ناظمه معنى سوى حكم إعراب تزجيه

و قال في بيت آخر :

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى حكم من النحو نمضي في توخيه [53]

فالنظم يرتبط بالمعاني الوظيفية/الإعراب.

ويقول "محمود محمد شاكر" محقق كتاب "دلائل الإعجاز في هذا الصدد : " لا ترى شيئا من ذلك يغدو أن يكون حكماً من أحكام النحو و معنى من معانيه. ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب و نرى العلم بها مشتركاً بينهم"[54].

نخلص على ضوء ما سبق إلى أن دلالات النظم ترتبط أساساً بالنحو، و معاني الإعراب، وباللفظ والمعنى، و بالتركيب النحوي.

إن أشمل تعريف يوضح جوانب النظم هو : " فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، و ليس هو ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء و اتفق، ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي و التحبير و ما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علة تقتضي كونه هناك، و حتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح "[55]. فلا يختلف هذا التعريف عما ذهب إليه "جعفر دك الباب"، الذي لخص شروط تحقق النظم في النقاط التالية [56] :

1. جعل الألفاظ أوعية للمعاني.
2. ضم الشيء إلى شيء آخر دون مراعاة أثر المعاني و ربط الأجزاء بعضها ببعض لا يعطي دلالة للنظم.
3. ضرورة تعلق الكلمات مع بعضيها وفق نظام و ترتيب معينين.
4. وجوب تلاقي معاني الكلمات وفق طريق يتقبله العقل والإدراك.
5. ارتباط النظم بالنحو – تحري معاني النحو – و تعمدها دليل على دور اللغة في بلورة الفكر.
6. ضرورة الوصول إلى معاني الكلمات نحويا و ليس الكلمات في شكلها المعجمي.
7. النظم يتطلب الاستعارة و أنواع المجاز.
8. قد يتعلق الفكر بمعاني الكلم المفردة أصلاً –المدلول – شريطة أن يرتبط ذلك بالجانب النحوي.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

إن النحو عند "« الجرجاني»" علم يكشف عن العلاقات التي تقيمها اللغة بين مختلف تراكيبها، و يستبعد أن تمثل اللغة مجموعة مصطلحات فكرية – دوال – ، بل هي تجسيد رمزي لحالة المتكلم النفسية – مدلولات–؛و بالتالي تتحدد الوظيفة الأساسية للنحو، في الإبانة عن مختلف المعاني الموجودة في الكلام، ثم إظهار حسن الجودة و تعليل الرداءة مع مراعاة ترتيب الحروف في الكلام" كقوله: تزيد منطلق"، "المنطلق زيد"، "زيد المنطلق"، إلخ. (57)

إن دقة "« الجرجاني»" في ربط النحو بالمعنى وفق السياق الكلامي هو ما جعله يعتمد الجملة وحدة لغوية أساسية (58). فتكون الألفاظ، بالتالي، لا معنى لها إذا لم تدخل في السياق الذي هو بمثابة المحور الأساسي في دراسته للتراكيب اللغوية. فما هو، إذن، الكلام عنده ؟ و ما صلته بالجملة ؟ و ما الوصف البنائي للجملة و كيف تتحدد دلالتها ؟

3- تحديد بنية الجملة عند الإمام "« الجرجاني»" :

إن تحديد المبنى و المعنى غاية الدرس النحوي و اللغوي العربي، و الجملة العربية هي النص، و تحليل الجملة هو تحليل للنص أيضا " فالجملة في عمومها مبنى يحمل معنى تاماً يخضع للتصنيف و التحليل اللغوي "(59). و قد اهتم النحاة بالمباني، و ركز البلاغيون على ظاهرة المعنى، أما " « الجرجاني» " فقد اعتمد المبنى والمعنى معاً.

" الجملة مبنى يحمل معنى تاما يخضع للتصنيف والتحليل "(60).

لقد اهتم النحاة بالمبنى وركز البلاغيون على ظاهرة المعنى ، أما « الجرجاني» فقد اعتمد المبنى والمعنى معا .

عالج النحويون الجملة واهتموا بها منذ القدم ونجد "« الجرجاني» " قد طرق باب الجملة وعالجها من الزاوية الوظيفية، ودرس جميع أنماط الكلام في اللغة العربية وفق السياق اللغوي ، وهذا ما يعرف بالتحليل السياقي للتركيب ، بمعنى النظر إلى الجملة من الناحية الخارجية ، فالجملة جزء من السياق وهذا ما يعرف بالجانب الدلالي.

اعتمد « الجرجاني» المنهج الوظيفي في تحليل اللغة ودراستها ابتداءا من الوحدات باعتبار أداة لتوليد الكلام إلى النحو الذي يضبط ويحدد التراكيب اللغوية إلى إدراك الجانب الدلالي أي المعاني اللغوية.

الأسس التي بنى عليها « الجرجاني» نظريته اللغوية :

1- الكلام واحتمالات التأليف بواسطة التعليق:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أ- الكلام:

إن الفكر والتفكير والحدث الكلامي عناصر أساسية في العملية التواصلية البلاغية يقول « الجرجاني» : " علم أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتُعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فيعرف فيما بينها فوائد وهذا علم شريف ، وأصل عظيم"(61).

يرى « الجرجاني» أن الكلمة ترتب في النطق نتيجة ترتب معانيها في النفس. (62) ويشترط في الكلام نظما للألفاظ وإفادة الفصاحة و المعنى. وقد ربط النظم بالكلام وأكد على حسن الكلام بالمعاني لا بالألفاظ وهذا سبب الإعجاز.

فرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة : "فنظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"(63) وهذا ما يفسر ظاهرة اعتباطية اللغة بين أفراد المجتمع.

ب- احتمالات التأليف بواسطة التعليق (مكونات الجملة):

- قسم الكلمة إلى ثلاث أقسام: اسم وفعل وحرف.
- تقوم الجملة على علاقة الإسناد.

2- الكلام وتوخي معاني النحو :

المقصود بالمعنى النحوي للكلام عند "« الجرجاني»" تلك المعاني التي تحمل نماذج من الترتيب واختيار الأقسام الشكلية في مقابل المعاني القاموسيةأي أن المعنى النحوي يبرز في معاني البنية الشكلية، فتكون للكلمات التي تؤلف التركيب دلالة وظيفية نحوية لا مجرد معاني قاموسية.يقول : " ... لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم ..." (64)

إن تعلق الألفاظ بعضها ببعض وفق الترتيب واختيار محددين مع مراعاة المعاني النحوية تحيلنا على المعنى الشامل للجملة ويكون ذلك وفق سياق ومقام معينين.

3- المقام الكلامي ومقتضاه:

اعتمد « الجرجاني» المقام ومقتضاه في الكلام وذلك حينما ميز بين خبر المبتدأ ، ففي الخبر الابتدائي يكون الخبر نكرة "زيد منطلق"، ويكون معرفة في الخبر غير الابتدائي : "زيد المنطلق" أو "زيد هو المنطلق"(65) .يتضح أن مقتضيات الحال هي أساس البناء اللغوي وأن الفروق بين أنواع ا لتراكيب وأشكالها تكون وفق مقتضى الحال ليس إلا كقولنا : (انطلق زيد) و (زيد المنطلق) و (زيد منطلق) فكل جملة من هذه الجمل تتحدد بمقام سياقي خاص.

4- السياق الكلامي في الجملة :

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

السياق الكلامي هو التتابع اللفظي المنطوق أو المكتوب ، المؤلف من جمل تتكون بدورها من كلمات ، حيث تتحدد البنية الشكلية للتراكيب على علاقات سياقية كلامية متنوعة[66] .الكلمة تكتسب دلالات مختلفة تبعا للسياق الذي توضع فيه ، وحسب موضعها في الكلام ومدى انسجامها مع الكلمات التي تكون قبلها وبعدها . فربط « الجرجاني» بين النحو والمعنى داخل السياق الكلامي وأكد أن اللفظة لا معنى لها حتى توظف في السياق.

عمد « الجرجاني» في دراسته الوظيفية إلى دراسة الموقف أو الحال الذي يقال فيه الخبر ، وبيان العلاقة بينه وبين السياق الكلامي الفعلي الذي يدخل فيه الخبر. [67]

إن السياق الكلامي أساسي في التركيب اللغوي، ولا بد أن يتماسك السياق المقامي بالكلام، وذلك بأن نعرف موضع كل كلمة قصد الوصول إلى تحقيق المعنى الدلالي اللغوي وإدراكه في التركيب.

5- المعنى اللغوي / الدلالي:

تتمثل أهمية المعنى اللغوي في تحقيق التواصل والإبلاغ بين الأفراد وعليه : " فالدلالة على الشيء هي إعلامك السامع إياه، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا عليه ... إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده. [68] وأشار « الجرجاني» في دراسته للمعنى اللغوي إلى مستويين: المستوى اللفظي والمستوى التركيبي فالنظم أساس المعنى.

الخاتمة:

وأخيرا يمكن القول إن دراسة التراث العربي واستنطاق ما فيه من الكوامن اللغوية النفيسة التي لها علاقة باستخلاص بالدرس اللساني، لابد أن تكون غاية الباحث العربي اليوم.

إن منهج « الجرجاني» ذو نزعة عقلية وتفكير منطقي وأسلوب منهجي إن المنهج اللغوي العربي لم يكن قاصرا رغم البعد الزمني التاريخي بين الجهود العربية والجهود الغربية الحديثة، وبهذا نضم كلمتنا إلى من قالوا بوجود الكثير من النظريات في تراثنا النحوي اللغوي تضاهي أحدث النظريات اللغوية اللسانية المعاصرة .

يعد "« الجرجاني»" أكثر اهتماما بالتركيب لأن هذا الأخير عنده يوحي بقوة وصلابة عناصره اللغوية والنظم هو أساس هذا التركيب وهذا ما يوحي بقوة وصلابة اللغة العربية.

هوامش قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب ، ط1، المجلد 1، ج4، دار صادر بيروت. 1992، مادة "بنى"، ص 94.
2. المصدر نفسه، ص93.
3. المصدر نفسه، ص 94.
4. فضل، صلاح. نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، ب.ت،ص 293.
5. زكريا، ابراهيم، مشكلة البنية، ط1، دار مصر للطباعة، ب.ت، ص 32.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

6. المسدي، عبد السلام. اللسانيات و أسسها المعرفية، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، و الدار التونسية للنشر، تونس. 1986، ص 129.
7. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص 8.
8. العمدة 75/1 ذكره إحسان، عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط2، دار الثقافة، بيروت. 1978،ص 445.
9. العسكري، أبو هلال، الصناعتين،ص 75.
10. زكريا إبراهيم. مشكلة البنية، ص 12.
11. المرجع نفسه، ص 44.
12. المرجع نفسه، ص 8.
13. المرجع نفسه، ص 7.
14. المرجع نفسه، ص 10.
15. أولمان (Stephen, Ullmann). دور الكلمة في اللّغة. تر: كمال بشر. ص125.
16. ينظر عن حياته: الراجحي، عبده. النحو العربي و الدرس الحديث، ط1، دار النهضة العربية، 1986. ص ص 24، 32.
17. بياجيه، جان. البنيوية، تر: عارف من يمنة و بشير أوبري. منشورات عويدات، بيروت، باريس،ط3،1982، ص 64.
18. دو سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسونية العامة. تر: يوسف غازي مجيد النصر. المؤسسة الجزائرية للطباعة، ط1،1986، ص10.
19. جان بياجيه. البنيوية، ص 7.
20. كراكبي محمد. بنية الجملة في الأدب الكبير لابن المقفع، جامعة عنابة، 1986، ص 156
21. زكرياء ابراهيم، مشكلة البنية، ص 77.
22. المسدي، عبد السلام، اللسانيات و أسسها المعرفية، ص 127.
23. المخزومي، مهدي، في النحو العربي نقد و توجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986،ص31.
24. ينظر : – مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط، ص 933.
– الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج4، دار العلم للجميع، بيروت (لبنان). د.ت. ص 171.
– الزمخشري، أساس البلاغة، ص 578، ذكرته.
25. ابن منظور. لسان العرب، مج12، ص 578.
26. علواش، أمينة. النظرية البلاغية عند عبد القاهر « الجرجاني» و الأسلوبية، ص ص 84، 85.
27. المرجع نفسه، ص85.
28. عباس، إحسان. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 420.
29. ت 471 أو سنة 474 هـ، عن حياته ينظر :
– « الجرجاني»، عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تصحيح و تعليق رشيد رضا، محمد ، ص كل ، ص ط (مقدمة).
– البدراوي، زهران، عالم اللغة عبد « الجرجاني» "المفتن في العربية و نحوها "، ص 15، ص36.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

30. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز ، ط : مكتبة الخانجي، القاهرة. ص ص 255-257.
31. المصدر نفسه، ص251.
32. عباس، إحسان. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص110
33. « الجرجاني»، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص ص 251، 252.
34. المصدر نفسه، ص 38.

*سورة الإسراء ، الآية 88.

35. « الجرجاني»، عبد القاهر، دلائل الإعجاز ، ص575، ينظر ص625.
36. أبو زيد، نصر. مفهوم النظم عند عبد القاهر، قراءة في ضوء الأسلوبية. مجلة فصول النقد الأدبي.العدد 1.
37. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، ص 625.
38. أبو زيد مقالة سابقة الذكر، مجلة فصول، العدد1.
39. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، ص 39، ينظر ص ص، 385- 474.
40. المصدر نفسه، ص 41.
41. « الجرجاني»، عبد القاهر. أسرار البلاغة، ص17، ص 19.ينظر دلائل الإعجاز -: ص 41، ص45، ص 481، ص 445.
42. المصدر نفسه،ص 575.
43. المصدر نفسه،ص 98.
44. المصدر نفسه،ص 123.
45. دك الباب، جعفر. الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني. ط1، مطبعة الجليل، دمشق. 1980، ص ص 13 ، 14.
46. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. مصر 106.
47. المصدر نفسه، ص 80.
48. عباس، إحسان. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص 203
49. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. ص 282,
50. المصدر نفسه، ص 282.
51. المصدر نفسه، ص 314.
52. المصدر نفسه، ص 81.
53. المصدر نفسه، ص10.
54. المصدر نفسه، ص10.
55. المصدر نفسه، ص49.
56. دك الباب، جعفر. الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني. ص40.
57. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، ص98.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

58. دك الباب، جعفر. الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص115.
59. عبادة إبراهيم. الجملة العربية، ص (من مقدمة الكتاب).
60. المرجع نفسه، ص 26.
61. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، ص 418.
62. المصدر نفسه، ص 45.
63. المصدر نفسه، ص 65.
64. المصدر نفسه، ص 80.
65. المصدر نفسه، ص 176.
66. بلعيد، صالح. التراكيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند عبد القاهر « الجرجاني»، د.م.ج الجزائر. 1984، ص76.
67. دك الباب، جعفر. الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني،ص 122.
68. « الجرجاني»، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، ص 156.